بلاغة العدول عن مقتضى الظاهر في القرآن الكريم
" سورة البقرة أنموذجا"

The Eloquence of Ecart in the Holy Quran
"Sourat El-baquara » as a model

الطالبة: أسماء زيدان
a.zidane@univ-chlef.zf
إشراف: د/ عبد القادر حمراني
مخبر: نظرية اللغة والوظيفية
جامعة حسيبة بن بوعلي-الشلف (الجزائر)

تاريخ الإرسال: 2018/11/29 تاريخ القبول: 2019/04/23 تاريخ القبول: 2019/06/03

الملخص:

يتخذ الكلام البليغ ضروبا من التراكيب تختلف باختلاف الأحوال والمقامات تماشيا مع المقاصد والغايات. والأصل أن يرد الكلام موافقا لمقتضى الظاهر إلا أن الظروف المقامية قد تحتم العدول عن ذلك الأصل لتحقيق الإصابة والحسن في الكلام.وهو ما لا يمكن الوصول إليه إلا عن طريق العدول عن الأسلوب النمطي،الأمر الذي يعكس ليونة اللغة وعبقريتها.وقد حملت سورة البقرة في الذكر الحكيم الكثير من هذه المبتكرات التي تميز بها القرآن الكريم. وهو ما نروم الوقوف عليه و التنبيه إليه من خلال هذه الورقة البحثية.

الكلمات المفتاحية: العدول ؛ مقتضى الظاهر؛ مقتضى الحال؛البنى التركيبية ؛ المقاصد البلاغية.

Abstract : *This paper aims to spot the light on one of the most common linguistic phenomena in the Holy Quran. This phenomenon is named "the transposition" which embodied an expressive energy. Therefore, the ecart appears through its composition contrary to the apparent requirement respecting the requirements of meaning and all the circumstances surrounding the verbal act. The recantation in this context is regarded as a rhetorical anecdote or moral joke that cannot be achieved but through this technique which is reflected in various styles of the arts of speech.*
Key words: *expressive energy; The Eloquence ;the transposition; the verbal act ; Ecart .*

تعتري اللغة العربية في بناها التركيبية العديد من العوارض التي تفرضها متطلبات المقام ومقاصد الخطاب. والتي يؤطرها العدول عن الأصل المطرد في التراكيب اللغوية كي تؤدي وظائف هامة في عملية التبليغ، إضافة إلى ما تفرزه من سمات ترقى بالتراكيب المعدولة إلى مستويات أعلى تتجلى فيها كل وجوه المزية والجمال. والتي يعمد المبدع إلى نظمها وفق ما يتطلبه الحدث و يقتضيه الموقف. ولا ترد هذه العوارض إلاّ لتقرير فكرة وإضافة معنى لا سبيل إلى الوصول إليه من دونها. وذلك لأنّ معنى الكلام مرتبط بترتيب أركانه،وطبيعة أوضاعه تماشيا مع الظروف المقامية وما تحيط به من ملابسات للوصول إلى الكلام البليغ الذي تؤطره البلاغة التي عرفوها بقولهم:" البلاغة هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته."[1] و المراد من مقولة المطابقة كل أنواع التصرّف التي ينتظم فيها الكلام البليغ بحيث يكون مطابقا لمقتضى الحال. وقد يستوجب الأمر العدول عن ذلك الظّاهر للوصول إلى المطلب وتحقيق المبتغى.ومن يتدبّر طبيعة هذه اللغة يقف على حقيقة مفادها أنّ سرّ ليونتها، وقوّة الاستجابة فيها لكل مطلب وليد جمعها بين آليات العدول

الذي تتمظهر فيه أصناف التعبير العاكسة لأنماط التفكير. ومن رام إدراك هذا العطاء المكتنز ألفاه في الكلام البليغ المثير للنّفوس.

ومن آليات عدول الكلام عن بنيته الأصلية لتجسيد لغة إبداعية فريدة التقديم والتأخير،والحذف، و الالتفات، والإظهار والإضمار، وغيرها من ظواهر العدول التي تعد خيارات أسلوبية يؤطرها النحو بمفهومه الواسع السليم،حيث يلجأ المبدع لصياغة تراكيب توائم مكامن أحاسيسه فتكون المباني حينها قوالب لخدمة المعاني والأحوال المقامية.

ولما كان القرآن الكريم أرقى مدونة ونظاما نصيا متكاملا في جوانبه النحوية ومقاصده البلاغية، فقد حفلت أساليبه بأنماط العدول التي تخرج عن مقتضى الظاهر تجاوبا مع سياق الموقف فتكون بمثابةمنبه أسلوبي يخاطب العقل حينا ويستوقفه حينا آخر فيستخلص لطائفه ودرره. وهو ما سنحاول ملامستهفي هذه الورقة البحثية محاولين استجلاء بعض ظواهر العدول عن مقتضى الظاهر في سورة البقرة من خلال عينات مختلفة البنى والأغراض نذكر منها على سبيل التمثيل:

أ/ التقديم والتأخير:

التقديم والتأخير من العوارض التي تلحق الجملة وهو أسلوب مستفحل في كلام العرب يصيب الرتب غير المحفوظة في الجملة لدواع تقتضيها الحاجة والمقام. تعد هذه الآلية

التقديم والتأخير. من أهم مباحث علم المعاني لما تحمله من طاقات تعبيرية تجسد الدلالات المطلوبة .حيث يتم إعادة ترتيب مواقع الأركان الإسنادية في الجملة "بما يتناسب مع حقائق حركة الحياة والكون فيقدم ما أريد التنبيه عليه والالتفات إليه. "[2]حيث يتاح للمتكلم عندئذ قدرا من الحرية في طريقة نسج الكلام عبر خيوطه اللينة والمرنة والتي لا تخرج عن الحدود المسموح بها نحويا . فالأركان الإسنادية «ينبغي أن ترتّب الألفاظ فيها ترتيبا صحيحا، فنقدم منها ما كان يحسن تقديمه، ونؤخّر منها ما يحسن تأخيره، ولا نقدّم منها ما يكون التأخير به أحسن، ولا نؤخّر منها ما يكون التقديم به أليق.»[3]

والجدير بالذكر أن ظاهرة التقديم والتأخير قد استقطبت أفهام علماء النحو والبلاغة الذين كان سعيهم حثيثا للوقوف على مكامن الإعجاز في القرآن الكريم،وقد ذهب النحاة إلى تبيين فوائد هذه الظاهرة حيث قال سيبويه: «كأنهم يقدمون الذي بيانه أهمّ لهم وهم ببيانه أعنى، وإن كان جميعا يهمّانهم ويعنيانهم.»[4]فالاهتمام بالخبر يستوجب تقديمه في التركيب اللغوي لإظهار العناية والاهتمام بذلك المقدم.

وقد أولى علماء البلاغة عناية كبيرة بالرتب غير المحفوظة لما لها من دلالات خاصة تؤثر في صناعة الكلام البليغ،وقد شغلت هذه الظاهرة اهتمام عبد القاهر الجرجاني الذي عبر عن ذلك قائلا:"هو باب كثير الفوائد جم المحاسن واسع التصرف بعيد الغاية لا يزال يفتر لك عن بديعة. ويفضي بك إلى لطيفة ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن قدم فيه شيء وحولا للفظ عن مكان إلى مكان "[5]ولنا فيما يلي وقفة مع أساليب التقديم والتأخير التي تزخر بها سورة البقرة في الذكر الحكيم.

1/تقديم الخبر المفرد :

قال عز وجل:"**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ**"[6]أصل الكلام حسب مقتضى الظاهر" أنذرتهم أم لم تنذرهم سواء عليهم "[7] واقتضى الحال أن يتقدم المسند "سواء" على المسند إليه "أأنذرتهم" المكون من همزة تسوية إضافة إلى الفعل والفاعل والمفعول به " وتردد النحاة في إعرابه وأظهر ما قالوه وأسلمه أن " سواء" خبر مقدم وأن الفعل الواقع بعده مقترنا بالهمزة في تأويل مبتدأ لأنه صار بمنزلة المصدر إذ تجرد عن النسبة وعن الزمان "[8] وخروج الكلام عن مقتضى الظاهر في الآية إنما للإشارة إلى " أن الناس لتعجبهم في دوام الكفار على كفرهم مع ما جاءهم من الآيات بحيث يسأل السائلون أأنذرهم النبي أم لم ينذرهم متيقنين أنه لو أنذرهم لما ترددوا في اللإيمان فقيل إنهم سواء عليهم "[9]فتقديم "سواء" في الآية الكريمة ورد كإجابة مباشرة عن تسائل الناس عن حالتين اثنتين. وعليه فإن معنى التسوية لا يتأتى إلا بهذا التقديم« لأنّ معناه سواء عليهم الإنذار وعدمه، فلو قدم " **أأنذرتهم**" لتوهّم السامع أنّ المتكلّم يستفهم حقيقة، وذلك مأمون بتقديم الخبر، فكان ملتزما.»[10]

02/تقديم الخبر شبه الجملة:

قال عز وجل في آية أخرى من نفس السورة:"**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عظيم**"[11]البنية العميقة تقتضي ورود الكلام دون تقديم وحول نظم الآية حسب مقتضى الحال حيث قدم "لهم"المتعلق بالخبر المحذوف على المبتدأ "خزي" وكذلك في "ولهم" في الآخرة المعطوفة على الجملة الأولى لتأكيد تخصيص الخزي لهم وهو: " قتل وسبي أو ذلة بضرب الجزية، وقيل فتح مدائنهم قسطنطينية ورومية وعمورية"[12]فخصص لهم الخزي في الدنيا عن طريق آلية التقديم ولهم في الآخرة عذاب عظيم.

وقال تعالى في سورة البقرة:"**وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**"[13]. خبر إن شبه الجملة " في ذلك" متقدم في الآية الكريمة على اسمها "لآية" لتركيز الكلام على المقدم والاهتمام به وذلك بعد نزول الملائكة لحمل هارون فكان ذلك آية اصطفاء الله طالوت [14]وفي تقديم الخبر في التركيب توكيد له لاتصال الخبر باللام المزحلقة التي تفيد التوكيد كما أن في ذلك تشويقا إلى المؤخر وهو اتخاذ الحادثة آية وعبرة للسامعين.

03/تقديم المفعول به:

قال الله تعالى:"**وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**"[15]. تقدم المفعول به" إبراهيم" على الفاعل "ربه" في الآية الكريمة وظاهر الحال أن يقول وابتلى الرب إبراهيم"[16]عدل إلى التقديم لحاجة المقام إلى الضمير العائد "الهاء" وليبين أن إبراهيم اتخذ من الله إلها له ولتبيين مدى إيمان النبي إبراهيم عليه السلام بالله عز وجل.

كما أن في هذا القديم تخصيص الابتلاء لإبراهيم وفي تقديم المفعول دلالة على تأكيد الكلام عن إبراهيم وابتلاء الله له.

أ/ الحذف:

الحذف أحد العوارض التي تعتري الجملة فتخرج بها عن أصلها المتواضع إليه وذلك بحذف أحد الأركان الإسنادية في التركيب لتحقيق أغراض بلاغية ومقاصد دلالية.لا يمكن تحققها من دون هذا الأخير فيكون الحذف أبلغ من الذكر في العديد من المواضع وذلك عندما يكون الكلام في غنى عن ذكر المحذوف فيأتي الحذف "ليعلن عن احتفاء البلاغيين بإشارية اللغة على معنى أن الصياغة الأدبية يجب أن تبتعد عن الوضوح الكامل، لأن مثل هذا الوضوح في الخطاب الأدبي يبعده عن كثافته ويعود به إلى الشفافية ... ومن هنا يكفي أن تشحن الصياغة بمؤشرات مقالية أو حالية تسمح بغياب بعض الدوال المعبرة عنها وقد أطلق البلاغيون على هذا ... (الاحتراز عن العبث بناء على الظاهر) "[17]دراية المتلقي وتقديره للمحذوف شرط من الشروط الأساسية التي يقوم الحذف عليها والمتمثلة في القرائن الحالية و المقالية التي تهدي إلى تقدير الكلام المحذوف.

نالت الظاهرة حظها الأوفر من الدراسة من طرف علماء اللغة القدامى لما تحمله هذه الأخيرة من طاقات تعبيرية ودلالات دقيقة يقضيها الحال ويتطلبها المقام ولعل قول عبد القاهر الجرجاني أبلغ قول في وصف ظاهرة الحذف والتنبيه إلى أسرارها ودقائقها المفضية إلى اللطف والإصابة في الكلام حيث قال:« هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتمّ ما تكون بيانا إذا لم تبن.»[18]

يلجأ المتكلم إلى الحذف بحثا عن الاقتصاد وطلبا للإيجاز وهو من البلاغة العربية التي تميل إلى اللفظ القليل والمعنى الوفير حتى أضحى الحذف من سنن العربية في الكلام وأحد أبرز العوارض التي تصيب التراكيب فسموا بها إلى أشرف الغايات وأجلها.[19]وقد استفحلت ظاهرة الحذف في القرآن الكريم لما يحمله من طاقات تذهب بالعقل كل مذهب في تقدير المحذوف، والبحث عن حقيقته فورد في العديد من المواطن في الذكر الحكيم ومن ذلك نذكر:

01/ الحذف في الجملة الاسمية:

أ/ حذف المبتدأ:

يحذف المبتدأ في التركيب لتحقيق أغراض بلاغية ومن مواطن الحذف فيه نذكر قوله تعالى:"**ألَم ذلك الكتابُ لا رَيْبَ فيه هُدًى للمتّقين الذين يومنون بالغيب**"[20]حذف المبتدأ "هو"في الآية الكريمة وتقديره تماشيا مع مقتضى الظاهركما يلي: " هو هدى للمتقين " وسد الخبر مسده فهدى " خبر ثان أو ثالث للمبتدأ ذلك مرفوع بالضمة المقدرة على الألف منع من ظهورها التعذر لأنه اسم مقصور أو حال للكتاب منصوب بالفتحة المقدرة أو أنه خبر لمبتدأ محذوف أو خبر مع لا ريب فيه [21]

حذف المبتدأ في هذا الموضع للتعريف بالكتاب المنزل ف " **ألم** جملة برأسها ... وذلك الكتاب جملة ثانية، ولا ريب فيه ثالثة، وهدى للمتقين رابعة ... فجيء بها متناسقة ... وذلك لمجيئها متآخية بعضها بعنق بعض "[22] حذف المسند إليه في الآية الكريمة لتمام علم المخاطب به.

ب/ حذف الخبر:

يحذف الخبر هو الآخر في التركيب إذا كان لا حاجة إلى ذكره لتحقيق الرشاقة في الكلام ومن ذلك قوله عز وجل:.**أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**23حذف الخبر المبتدأ "الله" في تركيب الآية وفسره الخبر الذي عطف عليه في الجملة التي قبله في قوله: "أأنتم أعلم" وتقدير المحذوف "أم الله أعلم" وحذف الخبر تفادي للثقل في الكلام لأن المحذوف معلوم من طرف السامع ولا طائل من ذكره " إذ الخبر مدرك تماما لأن إدراك المتلقي قادر على تتبع الأخبار في الذهن"[24] فالحذف هنا على ما يبدوزاد الكلام رونقا ورشاقة.

02/الحذف في الجملة الفعلية:

أ/ حذف الفعل:

ورد حذف الفعل في النص القرآني ومن ذلك نذكر قوله تعالى:"**وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ**25 حذف الفعل في تركيب الآية الكريمة في قوله: " وإذ قلتم" أي" قلنا لهم أذكروا إذا قتلتم " [26]وقد دل على المحذوف الكلام اللاحق له والفعل"قتلتم" والحرف "إذ"

ب/ حذف الفاعل:

يقتصد في الكلام ولتحقيق ذلك يلجأ إلى حذف الفاعل وبناء الفعل للمجهول وذلك كما في قوله تعالى:**وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ**[27] .حذف فاعل الفعل "ضرب" ولم يسم فاعله وبني للمجهول فقامت الذلة مقام الفاعل. ويقول صاحب الدر المصون " ضربت مبني للمفعول " الذلة" قائم مقام الفاعل ومعنى ضربت أي ألزموها عليهم بها من ضرب القباب قال الفرزدق لجرير:

ضربت عليك العنكبوت بنسجها وقضى عليك به الكتاب المنزل[28]

إحاطة الذلة والمسكنة بهم من كل جانب جعلت فاعلها مبهم من طرف اليهود والحذف هاهنا إنما ورد لإحداث عنصر المباغتة المبهم صاحبها

وذلك كما في قوله تعالى: وبست الجبال بسا[29] وبست تعني تفتت " وصارت مثل السويق الملتوت من بس السويق إذا لته أو سيقت أو سيرت من أماكنها من بس الغنم إذا ساقها كقوله تعالى: " وسيرت الجبال "[30] فشدة صعوبة الموقف اقتضت بتر الفاعل من التركيب لأن النفس منهمكة مع المشهد الفظيع

ج/حذف المفعول:

يسقط المفعول هو الآخر من التركيب طلبا للإيجاز والاختصار في القول ومن ذلك قوله عز وجل:**فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ**[31]حذف مفعول " لم تفعلوا" و" لن تفعلوا " حقق العدول في الآية الاختصار والإيجاز فلو قال : فإن لم تأتوا " لاستلزم الأمر أن تفصيل وإطناب في الشرح كأن يقول:فيقول بصورة من مثله ولن تأتوا بصورة من مثله لجأ إلى الفعل" تفعلوا " الذي يغنيه عن ذلك.

قال الزمخشري في هذا : " فإن قلت لم عبر عن الإتيان بالفعل وأي فائدة من تركه إليه ؟ قلت: لأنه فعل من الأفعال تقول أتيت فلانا ، فيقال لك: نعم ما فعلت و الفائدة فيه أنه جار مجرى الكناية التي تعطيك اختصارا و وجازة، ألا ترى أن الرجل يقول ضربت زيدا في موضع كذا على صفة كذا و شتمته ونكلت به ويعد كيفيات وأفعالا فتقول له بئسما فعلت ، ولو ذكرت ما أنبته عنه لطال عليك"[32]فورد الكلام بهذه الشاكلة رشيقا بديعا وهو ما لا يمكن تحققه مع الذكر.

ويحذف مفعول المشيئة من التركيب ومن ذلك قوله تعالى في سورة البقرة:"**قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ**"[33]. وتخريج الآية مع الذكر: " إن شاء الله هداتنا لمهتدون" حيث حذف مفعول المشيئة وغاب عن التركيب تماشيا مع غياب هدايتهم بسبب رفضهم وكفرهم وعنادهم.[34]

كما يحذف أحد المفعولين في التركيب ومن ذلك قوله تبارك وتعالى في سورة البقرة:"**فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ**"[35] في الآية الكريمة عدول بحذف المفعول الثاني للفعل المتعدي لمفعولين" آتنا" المقدر ب الإنعام أو الجائزة لقرينة قوله "حسنة " بعدها[36]أو أنه أنزل منزلة المتعدي لمفعول واحد أي: " اجعل إيتاءنا أي عطاءنا في الدنيا خاصة"[37] لتفادي تخصيص المفعول ليشمل كل النعم لأن الطالبين تختلف طلباتهم ودعواتهم حسب أغراضهم وقال الطاهر بن عاشور معلقا على هذا الحذف:" ترك المفعول الثاني لتنزيل الفعل منزلة ما لا يتعدى إلى المفعول الثاني لعدم تعلق الغرض ببيانه أي أعطنا عطاء في الدنيا"[38]

03/حذف الحرف:

يسقط الحرف من التركيب لتحقيق أغراض بلاغية يقتضيها المقام و تفضي إلى المطلوب من الكلام الذي يحققه هذا الأخير الذي ورد في العديد من المواطن في القرآن الكريم ومن نماذج ذلك نذكر قوله تعالى:"**وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**"[39]حذف حرف الجر في الآية الكريمة في قوله تعالى:" أن لهم" والأصل " بأن لهم"[40] فالعدول بحذف الخافض في التركيب ورد لتأكيد الخبر الذي بدأ تركيبه بالمؤكد "أن" وهو بشرى الجنات التي تجري من تحتها الأنهار ولنا أن نتصور ردت فعل السامع لنظم الآية في بلد وبيئة شبه جزيرة العرب كمالا يفوتنا كذلك "أن الله أعد نعيم الصالحين على نحو ما ألفته أرواحهم في هذا العالم فإن للإلف تمكنا في النفوس و الأرواح"[41]وعليه فإن الله وعد عباده المؤمنين بما تشتهيه نفس العربي وأكد ذلك وهو ما ساعد على خدمة المعنى المطلوب.

ب/ العدول عن مقتضى الظاهر بالالتفات:

ومن ظواهر العدول على خلاف مقتضى الظاهر أسلوب الالتفات إنّ ما ينطوي عليه أسلوب الالتفات من طاقات تعبيرية وخصائص فنية بوّأه هذه المكانة وجعله فنّا كلاميا تتجلّى على أصنافه معالم الإبداع.

وهو من أكثر الظواهر اللغوية شيوعا في القرآن الكريم، وأساليب العرب نظرا لخاصيته الأسلوبية المتميّزة بطاقتها الإيحائية القائمة على صيغ التنويع في الإحالات. وهو أحد أشكال العدول في مسار التعبير، وتلوين الخطاب تبعا لخصوصية المعنى، ومتطلبات المقام. فهو لا يجري على وتيرة واحدة لأنّه «مقصور على العناية

بالمقصود، وذلك المعنى يتشعّب شعبا كثيرة لا تنحصر، وإنّما يؤتى بها على حسب الموضع الذي ترد فيه.»[42] وقد عرّفه البلاغيون:« بالتعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة بعد التعبير عنه بطريق آخر منها.»[43] والطرق الثلاثة هي: التكلم والخطاب والغيبة. ومن البلاغيين من لم يقتصر على هذا الضرب بل وسّع دائرة الالتفات لتشمل التنويع بين أزمنة الأفعال، وكذا الضمائر. وجعله ابن جني من شجاعة العربية وعلّق على هذا التصنيف العلوي بقوله: «والسبب في تلقيبه بذلك هو أنّ الشجاعة هي الإقدام والرجل إذا كان شجاعا فإنه يرد الموارد الصعبة، ويقتحم الورط العظيمة، حيث لا يردها غيره، ولا يقتحمها سواه.»[44]

أنواع الالتفات :

لم يعرف الالتفات تقسيما موحّدا بين البلاغيين. فقد تضيق دائرته عند من حصره في المخالفة بين الضمائر، وتتسع عند من أضاف إلى ذلك التنويع بين صيغ الخطاب والتكلم والغيبة. وكذا التنويع بين أزمنة الأفعال. ويمكن حصره في ثلاثة أضرب، هي:

01/الالتفات في الضمائر:

وقد جاء الالتفات بالعدول عن الغيبة إلى الخطاب في قوله جلّ جلاله:**وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ** (البقرة 83) ورد الكلام بصيغة الغيبة "وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل" إلى الخطاب في قوله " ثم توليتم" وهو ما رآه الزمخشري من قبيل الالتفات إذ يقول: " ثم توليتم على طريقة الالتفات: أي توليتم على الميثاق ورفضتموه"[45] ورد الخطاب بعد الغيبة لاستجلاء فضاعة ذنب بني إسرائيل برفضهم الميثاق الذي أجراه الله مجرى القسم في نظم الآية الكريمة ويرىابن عطية الأندلسي أن الخطاب في "توليتم" موجه للمسلمين إذ يقول:" ثم توليتم الآية خطاب لمعاصري محمد صلى الله عليه وسلم وأسند إليهم تولي أسلافهم إذ هم كلهم بتلك السبيل"[46]

ومن مواضع تلوين الخطاب بالعدول عن الضمائر في سورة البقرة نذكر قوله تعالى: "**لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ**"[47].وفي هذا العدول إلى الخطاب المباشر تحذير للناس من الوقوع في المن والأذى مما ينفقون على أن ما ينفقوه لأنفسهم ولا ينتفع به غيرهم ابتغاء لوجه الله.وبيان لأجر النفقات فعدل إلى الخطاب لشدة اهتمام الله عز وجل بالانفاق والتصدق[48]

02/ الالتفات في أزمنة الأفعال:

ألحق جماعة من البلاغيين مخالفة مقتضى الظاهر في صيغ الأفعال بباب الالتفات كونه يمثّل عدولا عن أسلوب في الكلام إلى أسلوب آخر مخالف للأوّل.حيث يحدث الالتفات في التعبير بين صيّغ الأفعال في الأزمنة الثلاثة، فيعبّر بالماضي عن الحاضر أو المستقبل، أو العكس. ومن شأن ذلك العدول أن يجلب دلالات إضافية. ويحقّق مقاصد بلاغية. وهذا ما يتجلّى من خلال النماذج الآتية: ومن هذا الصنف توبيخ الحقّ تبارك وتعالى لليهود بقوله :**أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ**[49] قال الزمخشري: « فإن قلت: هلا قيل وفريقا قتلتم، قلت: هو على وجهين، أن تراد الحال الماضية لأنّ الأمر فظيع

فأريد استحضاره في النفوس وتصويره في القلوب، وأن يراد وفريقا تقتلونهم بعد لأنّكم تحومون حول محمد صلى الله عليه وسلّم لولا أنّي أعصمه منكم لذلك سحرتموه وسممتم له الشاة.»[50]ويمكن الجمع بين استحضار تلك الصورة الفظيعة، وبين تطلّعهم إلى قتل الرسول عليه الصلاة والسلام إلى جانب رعاية الفاصلة لتتحقق بلاغة المعنى وحسن المبنى.

03/الالتفات في العدد:

من مجاري العرب في كلامهم تلوين الخطاب وتنويع الأسلوب بين الإفراد والتثنية والجمع والعدول عن أحدها إلى الآخر تحقيقا لأغراض فنية ومقاصد بلاغية. وللأسلوب القرآني نسق خاص في تلوين الإحالات، وربطها بالمقاصد والغايات. مثلما يتجلى في النماذج الآتية:

تلوين الخطاب بالتنويع بين الإفراد والتثنية والجمع من مجاري العرب في كلامهم وذلك إنما لتحقيق أغراض بلاغية التي تتطلب مثلا الانتقال من صيغة الإفراد إلى صيغة التثنية كما ورد في قوله تعالى:"**مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ**"[51]بدأت الآية بالاسم الموصول الوارد بصيغة المفرد في قوله تعالى " **الذي استوقد نارا**" المقام استدعى الإفراد ليضرب الله لهم مثلا على نفاقهم وعدل إلى صيغة الجمع عند قوله تعالى: " ذهب الله بنورهم" علامة على زيادة الدلالة ويقول الزمخشري: " ألا ترى أن سائر الموصولات لفظ الجمع والواحد فيهن واحد ، وقصد جنس المستوقدين، أو أريد الجمع، أو الفوج الذي استوقد نارا على أن المنافقين وذواتهم لم يشبهوا بذات المستوقد حتى يلزم منه تشبيه الجماعة بالواحد "[52]فشبه حالهم بحال المستوقد لأنهم دخلوا في الإسلام فاستضاءوا بنوره ولما افتقدوا مادة من قلوبهم من نور الإسلام طفئ عليهم فذهب الله بنورهم[53]

الخاتمة:

ومجمل القول في ما سبق أن العدول عن مقتضى الظاهر ينطوي على خاصية أسلوبية تمنحه الحسن والإصابة في القول،والمبالغة في تقرير المعنى وإظهاره في أوضح صورة له. وفي العدول إلى ما يقتضيه الحال تحرّر من قيود الأصل وانغماس في بحر العدول الذي يطلق حرية المتكلّم، ويمنحه القدرة على الإبداع الذي يجد فيه ضالّته فيبرز رؤاه وتصوّراته بطرق مختلفة تشكّل ظواهر العدول فيها منبّهات أسلوبية تذكي القرائح، وتمتع النفوس، ومن ثَمَّ يحصل حسن التبليغ وقوّة التأثير الذي يمكّن للفكرة في النفس. وتنعكس صورته في مرآة عقل المتلقي وذلك هو مبتغى المتكلّم. وللقرآن الكريم في هذا المجال الحظ الأوفر الذي تتسامى فيه درجة الشّعرية التي يغذّها الإبداع الساحر واللغة الراقية المعبّرة عن لطائف الأفكار الرافضة للأسر، المتميزة بديمومة التحرّر من النمطية والانغلاق.

المصادر والمراجع:

[1] _ الخطيب القزويني، التلخيص في علوم البلاغة، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط02، 1932، ص03.

[2] _ مختار عطية، التقديم والتأخير ومباحث التراكيب بين البلاغة والأسلوبية،دار الوفاء، الاسكندرية، مصر، دط، 2005،ص17.

[3]: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، الصناعتين الكتابة والشعر،تح: مفيد قمحة، دار الكتب العلمية، لبنان، دط، دت، ، ص114.

[4] _ أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه، الكتاب،ج01،تح: عبد السلام محمد هارون،عالم الكتبن بيروت، لبنان،ط1983،03 ،ص24.

[5] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز،دلائل الإعجاز، تح: محمود محمد شاكر، دار المدني، مصر، ط03، 1992، ص 83.

[6] _ سورة البقرة الآية:06

[7] _ أبو القاسم الحريري،ملحة الإعراب، ص16

[8] ا محمد الطاهر بن عاشور، تفسيرالتحرير والتنوير، ج01، الدار التونسية للنشر والتوزيع، تونس، 1984، ص 249.

[9] __ المصدر السابق، ج01، ص 150.

[10] شرح التسهيل، جمال الدين محمد بن مالك الأندلسي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا وطارق فتحي السيد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط:01، 1422هـ - 2001م. ج:288/01. .

[11] - سوة البقرة الآية 114.

[12] الزمخشري، الكشاف، ج 01،تح: يوسف الحمادي، مكتبة مصر،القاهرة ، 2010،ط01 ص 179.

[13] _ سورة البقرة الآية: 248.

[14] ينظر: الزمخشري، الكشاف، ج01، ص 278

[15] _ سورة البقرة الآية 124.

[16] _ في القراءة المشهورة الفاعل يلي الفعل في التقدير" فتعليق الضمير به إضمار قبل الذكر أن يقال، ابتلى ربه إبراهيم، فأما ابتلى إبراهيم ربه أو ابتلى ربه إبراهيم فليس واحد منهما بإضمار قبل الذكر، أما الأول فقد ذكر فيه صاحب الضمير قبل الضمير ذكرا ظاهرا، وأما الثاني فإبراهيم فيه مقدم في المعنى وليس كذلك في ابتلى ربه إبراهيم" الزمخشري، الكشاف، ج 01، ص 182.

[17] _محمد عبد المطلب، البلاغة العربية قراءة أخرى، مكتبة لبنان ناشرون،بيروت،ط1997،01، ص217.

[18] _عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز،ص112.

[19] _- ينظر الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، أبو الحسين أحمد بن فارس، تحقيق: عمر فاروق الطباع، مكتبة المعارف، بيروت، لبنان، ط:01، 1414هـ -1993م.ص:211

[20] _ سورة البقرة، الآية 04

[21] _ ينظر: محمد الطيب الإبراهيم، إعراب القرآن الكريم، دار النفائس، بيروت، 2011، ط5، ص 02 . وينظر، الزمخشري ، الكشاف، ج 1، ص50.

[22] _ الزمخشري ، الكشاف ،ص 50.

[23] _سورة البقرة،الآية: 140

[24] _ حسين مصطفى غوانمة، بلاغة الحذف في التراكيب القرآنية، دار حامد، الأردن،ط01، 2015ص 71.

[25] _ سورة البقرة،الآية: 72

[26] _ ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز،ج01،تح: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار النفائس، بيروت، 2001،دط ص165.

[27] _سورة القرة الآية:61.

[28] أحمد بن يوسف السمين الحلبي، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون،ج01، تح: أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، دت،دط، ص 396.

[29] _ سورة الواقعة 05.

[30] _ أبو السعود بن محمدالعمادي الحنفي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الحكيم، ج05 تح: عبد القادر أحمد عطا، ج1، مكتبة الرياض،الحديثة ، دط،دت ،ص255.

[31] _ سورة البقرة،الآية 24.

[32] _ الزمخشري، الكشاف، ج01، ص 108

[33] - سورة البقرة الآية: 70

[34] ينظر:المرجع نفسه، ص76

[35] _ سورة البقرة الآية :200.

[36] ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج02، ص247.

[37] ينظر: الزمخشري، الكشاف، ج01، ص 239.

[38] _ الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج02، ص247.

[39] _ سورة البقرة الآية 25.

[40] ينظر: البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج01،تح: محمد عبد الرحمان المرعشلي، دار الكتب العلمية،دت ،دط ص 119.

[41] الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج01، ص354.

[42] _ ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر،ج02، تح محمد محي الدين المكتبة العصرية للطباعة ، بيروت 1995، دط نص170.

[43] _ الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ج02، تح: الشيخ بهيج غزاوي، دار إحياء العلوم، بيروت، 1993، ط02 ص86.

[44] _ العلوي، الطراز،ج02، مطبعة المقتطف، مصر، 1332ه دط،ص71.

[45] _ الزمخشري، الكشاف، ج1، ص 161.وينظر: ابن الأثير المثل السائر، ج02، ص 173.

[46] ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز، ج1، ص173

[47] _ سورة البقرة الآية :272.

[48] ينظر: الزمخشري، الكشاف، ج1، ص 296. والطاهر بن عاشور ، التحرير والتنوير،ج3ص 73.

[49] _ سورة البقرة: الآية: 87.

[50] _ الزمخشري، الكشاف، ص44

[51] _ سورة البقرة الآية 17.

[52] _ الزمخشري، الكشاف، ج01، ص 84.

[53] ينظر: بن القيم الجوزية، بدائع التفسير، تح: صالح أحمد الشامي، ج01، دار بن الجوزية، القاهرة ،ط01، 1427ه ص 99.